أزمة الثقافة في المجتمع الإسلامي في منظور ابن رشد

د . محفوظ السماتي
أستاذ محاضر معهد علم الاجتماع
جامعة الجزائر

الأزمة هي حالة توتر وفقدان توازن ، تصيب المجتمعات المريضة المهددة بالتفكك ، فتزعزع رواسيها وتيث في صفوفها الحيرة والقلق .

واذا كانت الأزمة الاقتصادية رغم ما ينجر عنها من فقر وزوال نعمة عابرة ، لا تترك آثارا حادة في النفوس فان الأزمة الثقافية أشد وطأة على المجتمع ، تتغلغل في أعماقه ببطء ودهاء ، دون اثارة أي انتباه حتى يشتد ساعدها ويقوى رصيدها ويكثر أنصارها فتسفر عن تيارات فكرية متعارضة وأحيانا متناحرة فتنتشر البلبلة وتختفي الوحدة الجامعة التي كان مندمجا تحت لوائها أغلبية أفراد المجتمع فينقسمون فرقا وشعيا . وفي هذا التشتت هلاك الأمة كما بينه أبو حامد الغزالي بقوله : «ان اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه الا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي وكل بما لديهم فرحون وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ﷺ وهو الصادق الصدوق حيث قال : «ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة الناجية منها واحدة» فقد كاد ما وعدا أن يكون»[1] .

فالاختلاف كما أكده حجة الاسلام ، جبلة في البشر وهو ظاهرة شاملة ليس على مستوى الأديان فحسب بل حتى داخل الملة الواحدة . ودون أن يتعمق في أسباب هذا التباين بين أبناء الدين الواحد اكتفى بالاستشهاد بالحديث الذي كشف به الرسول ﷺ لصحابته عن وضع أمته في المستقبل .

فكان الحديث أصبح سندا لكل من سولت له نفسه انشاء مذهب أو فرقة يعارض بها من

سبقه في هذا الميدان ، معتقدا أو متظاهرا بالاعتقاد بأنه هو الناجي لأنه على طريق الصواب وغيره في ضلال مبين زاغت قلوبهم فانحرفوا عن الصراط السوي . والاختلاف في الأفكار لاحد له والأهواء لا نهاية لها كذلك . وهذا التنافس المستمر أضر بوحدة المجتمع فتتوزع الى فئات كلها تدعي الزعامة ولو على حساب الصالح العام .

والغزالي لا يحاول أن يشرح لنا بالتفصيل العلل الحقيقية التي جعلت المجتمع مغلوبا على أمره يتسامح مع من يتجاسر على مقوماته الدينية والثقافية . فيتركنا نتساءل هل الحديث المذكور لم يجعل انقسام الأمة الى اتجاهات وتيارات مختلفة أمرا محتوما لا مفر منه ؟

ونطرح نفس السؤال على ابن رشد لعله يقنعنا بآرائه وتحاليله ؟. إن مشكلة الاختلاف بين المسلمين لم تبق على المستوى الفكري بل تجاوزته الى نزاع خطير أسال الدماء واستباح المحرمات وأقام حواجز بين أبناء الاسلام . أين يكمن يا ترى هذا الوباء الذي عجز عن علاجه الحكماء ؟ هل ثقافتنا تشكل حقلا صالحا لصراع عنيف لا يترك للمجتمع راحة بال ؟ فكان صورتها تتمثل في شخص السندباد البحري ذلك الرجل الذي لم يشعر بالطمأنينة الا في مشقة الأسفار وارتكاب الأهوال . فكذلك المجتمع الإسلامي لم يتمتع طويلا بالهدوء وجمع الشمل حتى دخل في اضطراب تنافرت فيه عناصره وانقسمت أجزاءه . ولخص أبو الوليد هذا الوضع فقال : «ان الناس قد اضطربوا في هذا المعنى كل الاضطراب في هذه الشريعة حتى حدثت فرق ضالة وأصناف مختلفة ، كل واحد منهم يرى أنه على الشريعة الأول وأن من خالفه اما مبتدع وأما كافر مستباح الدم والمال . هذا كله عدول عن مقصد الشارع وسببه ما عرض لهم من الظلال عن فهم مقاصد الشريعة»[2] .

يقدم ابن رشد في هذا النص صورة كاسفة عن حالة الثقافة والمثقفين في المجتمع الاسلامي ، تعبر عن انحراف في العقيدة ، وابتعاد عن الشريعة واتباع أهواء وعجز عن القيام باصلاح ذات البين مما أوقع الأمة تحت سيطرة الجهل والغرور تركها تتخبط في العداوة والبغظاء والمشاجرة من أجل افكار مزيفة . هذه الانقسامات الاجتماعية رغم ظاهرها الثقافي والفكري فانها تخفي جذورا طبيعية هي السبب الأساسي في توزيع الأفراد على منازل تنسجم مع استعداداتهم الفطرية لتقبل نموذج معين من الثقافة وليس غيره . إذا حاولنا استبداله بنموذج آخر يتخلل النظام الطبيعي ويفتح الباب للمنافسة الهدامة التي تنطلق من أفكار بسيطة يطمح بهاصاحبها الى نيل المعالي ، فيظلم الثقافة ويدخل معركة هو عاجز عن خوضها . ونتيجة هذا السلوك العشوائي هو الاضطراب الذي يضرم النار بين الفرق المتناحرة .

يرى ابن رشد أن جبلة الفرد هي التي تحدد نصيبه : «من التصديق ، وذلك أن طباع الناس متفاضلة في التصديق فمنهم من يصدق بالبرهان ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان اذ ليس في طباعه أكثر من ذلك ، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية»[3] .

فالناس اذن ينقسمون حسب طبائعهم الى ثلاثة أصناف :

1 – برهانيون لا يصدقون الا بالبرهان .

2 – جدليون يصدقون بالأقاويل الجدلية .

3 – خطابيون يقتنعون بالأقاويل الخطابية .

يستخرج فيلسوف قرطبة هذا التصنيف من الآية الكريمة : ﴿**أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[4] .

فمصدر فيلسوفنا هو القرآن العظيم وليس كما يعتقد الأستاذ يحي هويدي[5] أنه أخذه من «أعز ما يطلب» لابن تومرت ، فلو كان كذلك لأشار إليه لاسيما وأن الرجل هو مؤسس الدولة الموحدية التي عاش ابن رشد في أكنافها .

ولم ينقله أيضا عن أرسطو طاليس كما يتهمه جوتي[6] في مقدمته لترجمة فصل المقال . فمن عادة الشارح كما يسميه الأوروبيون ، الفصل بين كلامه وكلام المعلم الأول .

فالانطلاقة اذن كانت قرآنية وقد استنبط ابن رشد هذا الترتيب الاجتماعي من تأويله للآية المذكورة .

المرتبة الأولى يحتلها العلماء الذين يستخدمون العقل في فهم جميع الظواهر الدينية والدنيوية ، فقد استطاعوا بفكرهم السليم أن يحللوا القضايا تحليلا متماشيا مع البرهان الذي يخضع لسلطانه كل عاقل منقاد للأدلة البرهانية . وهذا الصنف كما يقول ابن رشد : «هم من أهل التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة أعني صناعة الحكمة وهذا التأويل ليس ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل فضلا عن الجمهور»[7] .

فالعلماء جماعة خاصة اقتنت الحكمة بفضل المجهودات التي بذلتها في سبيلها ثم بفضل تفوقها الفطري ، فهي نخبة تمتاز بموهبة تحث صاحبها على السعي وراء العلم اليقيني والبحث عنه واكتسابه مهما يكبده ذلك من مشاق لأن الاستعداد الفطري غير كاف للحصول على الحكمة .

فالقاعدة المعتمدة هو ما يقوم به الباحث من جهد وما يقدمه من تضحية حتى يلتحق بصفوف الحكماء ويهتدي الى سبيل الرشاد ، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾[8] .

فالعمل هو الشرط الأول اذن للوصول الى درجة المعرفة وكذلك العبقرية كما يقول المثل كلها اكتساب ماعدا جزء ضيئل يعتبر لدينا .

وعندما يتم تحصيل العلم تبدأ مسؤولية العلماء الاجتماعية ، فهم مطالبون بنشر علمهم بأمانةولمن هو أهل له فاذا وضعوه في غير محله فانهم يظلمونه ويسيؤون الى المجتمع حيث يدخلونه في حيرة وشغب .

وتسند الأمانة العلمية لأهل البرهان لأنهم أصحاب التأويل وتفسيرهم للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة يكون دائما مبنيا على معرفة وعلى منطق لا يتعارضان مع قصد الشريعة . وأهل الحكمة مفضلون على غيرهم في هذا المجال لأن الله تعالى أشركهم في فهم معاني القرآن وتأويله فقال : ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾[9] .

يعتبر ابن رشد «الراسخين في العلم» العلماء الذين لا يصدقون الا بالبرهان والذين أدركوا ظاهر الآية ونفذوا الى باطنها دون أن يخلطوا بين المعنيين فكانوا من أبرع المربين ، يعلمون الناس حسب استعداداتهم لتلقي العلم فكانوا على منهج الامام علي حيث يوصي المعلم بالاهتمام بمستوى المتعلم فيقول : «حدثوا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[10] .

حفاظا على السلم الاجتماعي ورفقا بالمبتدئين لا ينشر العلماء ثقافتهم في الأوساط التعليمية الا بمقدار وحسب مقتضى الحال . ومن الضروري أن تبقى العامة بعيدة عن المناظرات العلمية والفلسفية حتى لا يتسرب الشك الى عقيدتها البسيطة في المفاهيم العميقة في النفوس . والمستوى العقائدي والثقافي هو الذي يتحكم في البنية الإجتماعية لا سيما في المجتمع الإسلامي ، لذا يجب الاعتناء به حتى لا تشوبه عناصر أجنبية تسلبه رونقه الخالص .

لكن أهل الحكمة «كالنوابت» حسب تعبير ابن باجة ويعني بذلك أنهم غرباء في مجتمعهم ، مثل النبات الأجنبي عن الزرع رغم أنه موجود معه في الحقل لكن دون تجانس ولا انسجام . كذلك الفيلسوف فهو معزول عن مجتمعه ، لايجد الا نادرا من يتجاوب معه ويتبنى أفكاره .

والوسط الاجتماعي الذي يقصي مفكريه البرهانيين ويرفض تعليمهم ، ينحرف عن طريق الحقيقة ويسلك طريق التقليد والجمود ويتوقف عن فهم الظواهر الإجتماعية والثقافية والطبيعية فهما صحيحا مبنيا على البحث والتروي مدعما بآراء الأوائل السليمة من بني الملة وغيرهم حتى تتسنى عملية التكديس الثقافي والفكري التي تفتح باب التقدم العلمي . فلا يحتاج الباحث الى اعادة النظر في القضايا التي تم الفصل فيها وفي هذا يقول ابن رشد : «ان هذا الغرض انما يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحدا بعد واحد وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة وراح انسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الاجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك ... والفقه نفسه لم يكمل النظر فيه الا في زمن طويل ، ولو راح انسان اليوم من تلقاء نفسه أن يقف على جميع الحجج التي استنبطها النظار من أهل المذهب في مسائل الخلاف التي وضعت المناظرة فيما بينهم في معظم بلاد الإسلام ما عدا المغرب فكان أهلا أن يضحك منه لكون ذلك ممتنعا»[11] .

ان الرصيد العلمي ثروة للبشرية كلها ، تنميها الأجيال المتعاقبة ولا فضل لأحد على الآخر الا بما يقدمه من خدمة للجميع ، لكن الثقافات رغم تشابهها والاستقاء من بعضها بعضا فانها

تبقى منفردة في جوهرها معبرة عن خصوصياتها رافضة لبعض المقومات التي أسست عليها بعض المجتمعات ولا تنجسم مع مبادئء العقيدة مثلا ، وقد أشار أبو الوليد الى هذا الجانب الذي يشكل الاختلاف بين الثقافات بقوله : «فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا الى كتبهم (كتب القدماء) فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صوابا قبلناه منهم وان كان ليس بصواب نبهنا عليه»[12] .

ان الاقتباس من ثقافة الغير لا يكون إلا نتيجة تمحيص وليس عملية محاكاة دون استعمال مقاييس ، فالمقياس بأيدينا تشكله عقولنا وعقيدتنا ، يعطينا وجه الصواب ووجه الاختلاف والتباين كلما اعترضتنا مشكلة مع ثقافة غريبة عنا والمعروف أن كل ثقافة تتشابه مع جميع الثقافات ولا تتشابه الا مع بعض الثقافات ولا تشابه أي ثقافة أخرى .

ومن صفات المجتمع الذي كملت وحدته واندمجت أجزاؤه الانفتاح على المجتمعات الأخرى ، يتبادل معها الأشياء المادية والظواهر الثقافية والأفكار العلمية دون أن تذوب شخصيته في أية مجال من المجالات يعبر عن قدرته على الخوض في معركة الحضارة الإنسانية بالأخذ والعطاء والتأثير في الغير والتأثر بهم . فاذا انطوى على نفسه فإن حركيته تكون بطيئة ولا يجد في ذاته الدوافع القوية لتحقيق التغيير ، لا تربطه بما حوله روابط تجزه نحو وضعية أفضل فيستسلم لسلطان السكون وسلطة أهل الجدل المنكبين على مسائل ثانوية لا توفر الغذاء الفكري ولا البدني وانما تلبس المجتمع ثوب النزاع والانشقاق .

إنها المحنة التي أصابت الأمة الإسلامية فأماتت خلاياها الحية وتركتها تتخبط في مشاكل عقائدية مفتعلة لا زالت تعاني من ويلاتها الى اليوم ، وموقدو نار الفتنة لم يصعوا السلاح ولم تتغير سلوكاتهم . لقد زجوا بالمجتمع في مأزق ما زاده الا حيرة وتمزقا . فهذا السرطان الذي ما انفك يفتت جسد الأمة انتشر الآن بقوة فتاكة وتغلغل في الأعضاء فوجد المجال صالحا ، جهل مركب وتخلف مقذع وقادة فكر أقزام .

واذا كان الصراع بين الفرق الإسلامية في الماضي قائما على آراء ابتكرتها عقول نيرة تدل على نضجها وكفاءتها وعمقها فان الاختلاف في عصرنا يسوده الغرور والسخافة والعنف فانحط المجتمع الى مستوى رديء تفككت فيه بنيته وفسدت أخلاقه وتلاشت ثقافته حتى قال أحد الحكماء : «لقد كثر العلماء وعم الجهل ..» .

فهذا المرض العضال ترجع جذوره حسب بعض الأراء الى عقلية الجنس السامي الذي يبدو عاجزا عن الغوص في بحر العقل لاستخراج جواهره . فالعقل بالمفهوم اليوناني ليس من ميزات الثقافة السامية ولا سيما الإسلامية كما يعتقدون . وهذا رأي أرنست رينان الذي يزعم : «ان هذا الجنس السامي يظهر في كل مقوم من مقوماته غير كامل ، وذلك لبساطته» ويضيف في فقرة أخرى : «ان أهم عمل للساميين هو أنهم تمكنوا من تبسيط الفكر والعقلية البشرية وتخلصوا من التعدد والتنوع والتعقيد الذي كان يهيم فيه تفكير الأوروبيين الديني»[13] .

تفوق الساميون اذن في الفكر الديني على غيرهم فتوصلوا الى فكرة التوحيد التي استعصت على الأمم الأخرى ، لكنهم بقوا بعيدين عن العقل الوضعي الذي انتجه الاغريق وامتازوا بصفاته . ويحاول رينان أن يثبت هذا من خلال مقارنته للفلسفة اليونانية بالفلسفة الإسلامية ، فيجزم دون تردد : «فتراني أصر على اعتقادي أنه لم يسيطر على ايجاد هذه الفلسفة (الإسلامية) أية فرقة كبيرة من فرق العقائد وذلك أن العرب لم يصنعوا غير انتحال لمجموع الموسوعة اليونانية كما عول عليها العالم بأسره حوالي القرن السابع والثامن .. وذلك أن الفلسفة العربية تعد مثالا وحيدا لثقافة بالغة السمو حذفت بغتة من غير أن تترك آثارا ونسيت تقريبا من قبل الأمة التي ابدعتها وفي هذا الحال يكون الإسلام قد كشف عن ما هو ملازم لعبقريته لزوما عضالا ، وكذلك كانت النصرانية قليلة الملائمة لنشوء العلم الوضعي فوقفت لتعطيل هذا العلم في اسبانيا وعوقه في ايطاليا كثيرا ولكن من غير اطفاء له فانفقت حتى أعلى فروع الأسرة النصرانية الى اصلاح ما بينها وبينه واذ لم يستطع الإسلام أن يتحول وينتحل أي عنصر من الحياة المدنية والعلمانية فقد نزع من جوفه كل أصل من الثقافة العقلية»[14] .

ان التناقض بين أفكار هذا الفيلسوف واضحة فهو يعتبر الساميين بازدراء رواد الفكرة التوحيدية مع أنه يعلم أن الوصول الى الاقتناع بوجود إله واحد يسير هذا العالم ليس من الأمر الهين . انه يتطلب جهدا يبذله عقل باحث عن الحقيقة لتطمئن بها القلوب . ولقد ذاق مرارة تلك التجربة ابراهيم عليه السلام عندما كان ذاهبا الى ربه . ويصف القرآن منهجية الخليل في صورة علمية رائعة فيقول : ﴿**وكذلك نوري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي اني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين**﴾[15] .

دون أن نحاول تفسير هذه الآيات أو تأويلها ، فاننا نلاحظ أن استخدام المنطق هو الذي جعل الخليل ينتقل من منزلة أدنى الى منزلة أعلى أو من موقف الى موقف أفضل كما تقول الصوفية . فالمسيرة كانت طويلة وشاقة ولم تكن عملية تصديق تلقائي دون ملاحظة وروية . الا أن رينان يهمل هذا الجانب الهام في طريقة البحث العلمي ويواصل استخفافه بها فيبقي يتلاعب بالألفاظ جاعلا الثقافة الإسلامية بين نيقيضين تارة يشتد بها فيصفها بأنها «بالغة السمو» ثم ينزل بها الى الحضيض فينسب اليها السلبية حيث أنها عديمة الاستقرار وأن الذين ابتدعوها هم أول من تنكر لها ونسيها . فهذا الهجوم القائم على كليشيات هو الذي لا زال يردده بعض المغرضين عندما ينسبون تخلف العالم العربي الى الإسلام .

والاختلاف حول موضوع الفلسفة الإسلامية بين باحثين مسلمين وغيرهم راجع الى موقفهم من الفكر الأريسطو طاليسي ولا سيما من حيث المنطق . فهذا على سامي النشار يؤكد لنا بالحاح : «ان مفكري الاسلام الممثلين لروح الإسلام لم يقبلوا الفلسفة الارسطوطاليسية ولا المنطق الاريسطو طاليسي ونحن نتنكب الصواب اذا قلنا أن ابن سينا يمثل الإسلام ولا يمثله الغزالي . لم يكن ابن سينا مفكرا مسلما على الاطلاق ولم يمثل الحضارة الإسلامية أدنى تمثيل ، ولا يتصور عاقلا أن يكون «الشفاء» ممثلا لفكرة إسلامية وروح إسلامي . انه فلسفة يونانية بحتة بينما يمثل «تهافت الفلاسفة» للغزالي روح الإسلام الحقيقي»[16] .

التطرف في الحكم هو الذي جعل علماء المسلمين غير متكاملين في أرائهم يكفر بعضهم بعضا ، كل يدعو الى طرد خصمه من المجتمع وفصله عن الثقافة والدين للقضاء عليه نهائيا فليست هناك محاولة للتروي في أفكار الغير والتماس العذر لمن يستحقه ، وقليل من العلماء الذين ينتهجون الموضوعية في انتقادتهم مقتدين بالامام الغزالي . فانه رغم ما يبديه من استخفاف بالفلاسفة لا يتسرع في الحكم عليهم ، يتفق معهم في بعض الأفكار ويختلف معهم في أخرى فيفصح عن عدم موافقته لهم في موضوع الألهيات مثلا فيقول : «ولقد قرب مذهب أريسطو طاليس فيها من مذهب الإسلاميين على ما نقله الفرابي وابن سيناء ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر»[17] .

يحاول أبو حامد أن يتحرى النزاهة العلمية فيقسم الأغلاط الى درجات ولا يحاسب أصحابها الا على قدر انحرافهم عن الكتاب والسنة فاعتناق الكفر غير ابتداع البدع ولذا يتفادى حجة الإسلام الخلط بينهما . لكن رغم هذا الورع الذي يتجلى في دراسته للفلسفة فانه يعلن صراحة كفر خصومه وهذا يعني أنه يفضل فئة من النخبة عن الأمة فلا يبقى من يقتدي بها ويتأثر بتعاليمها وأكثر من ذلك يؤدي هذا الموقف المعادي «للحكمة» الى غضب العامة وحثها الى القيام بالعنف ضد من يتبع القدماء ويدرس كتبهم ، وتزيد السلطة السياسية هذا السلوك المتهور ارضاء للكافة العمياء مستغلة جهلها وعاطفتها الدينية .

ويصف لنا المقرى حال الأندلسيين وتقلبهم في البيئة العلمية والثقافية فيقول : «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم ، فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة فانه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق وفيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه»[18] .

وهذا ما كان ينده به ابن رشد ، يناشد العلماء أن يحتفظوا بعلمهم وأن لا يلقنوه الا لمن هو أهل له حتى لا يصبح سرميا في الشارع تتلاعب به أيدي المشاغبين من أهل الجدل ، تلك الطائفة التي تحتل مكان الوسط بين أهل البرهان واهل الخطابة أو العامة فانها تشكل خطرا على المجتمع . وينبه فيلسوف قرطبة أهل الحكمة الى وضع تأويلاتهم في كتب خاصة لا يتصفحها من لم

يبلغ منزلة العلم والمعرفة حتى لا يقع في زلة أبي حامد «وان كان الرجل انما قصد خيرا وذلك أنه رام أن يكثر أهل العلم بذلك ولكنه كثر بذلك الفساد بدون كثرة أهل العلم وتطوق بذلك قوم الى ثلب الحكمة وقدم الى ثلب الشريعة وقوم الى الجمع بينهما»[19] .

ويضيف أبو الوليد الى ذلك صورة لتصرفات أهل الجدل وما أنجر عنها من تعسف وفساد في المجتمع سواء من حيث الشريعة أو الحكمة فيقول : «كما عرض ذلك لقوم من أهل زماننا فانا قد شاهدنا منهم أقواما ضنوا أنهم تفلسفوا وأنهم قد أدركوا بحكمتهم العجيبة أشياء مخالفة للشرع من جميع الوجوه أعني لا تقبل تأويلا وأن الواجب هو التصريح بهذه الأشياء للجمهور فصاروا بتصريحاتهم للجمهور بتلك الاعتقادات الفاسدة سببا لهلاك الجمهور وهلاكهم في الدنيا والآخرة[20] .

ان هذا الصنف من «المثقفين الأقزام» هم الذين جنوا على الثقافة الخالصة تطلعوا الى مجال العلم فلم يدركوا منه الا بصيصا واعتقدوا أنهم أحاطوا به علما وذهب بهم الغرور حتى أصبحوا يبثون آراءهم الساجذة بين الجماهير فنشروا البلبلة في صفوفها . وشنوا حملات شنيعة على الفلسفة فأتبعهم كل ناعق وأدخلوا الرعب في قلب السلطان فاستجاب لمطالبهم فشكلوا قوة ضاغطة يخشاها أولو الأمر والجماعات . فاختفت المعرفة في هذا الجو القاتم وتشتت وحدة المجتمع وتنازع الناس في قضايا لا تعنيهم وتشاتموا وتلاعنوا وانقسموا حسب الأهواء ، وذهب ضحية وضعية متفجرة كهذه الخطابيون وهم السواد الأعظم من الأمة . كانت عقيدتهم خالية من كل شك فزعزعتها الآراء المتضاربة التي تؤول بكل جرأة المسائل الشرعية دون أن تتحكم في قواعد التأويل . ويحمل ابن رشد الأشعرية والمعتزلة مسؤولية تفكك المجتمع انطلاقا من العقيدة فيقول : «ان تأويلاتهم لا تقبل النصرة ولا تتضمن التنبيه على الحق ولا هي حق ، ولهذا كثرت البدع»[21] .

والفتنة يوقد نارها أهل الجدل ، بضربون حصارا على أهل الحكمة وعندما يخلوا لهم الجو ، يستغلون سذاجة العامة فيجرونها وراءهم في طرق اختلافاتهم ويفسدون عليها ايمانها وتقاليدها ويقتسمونها فئات تتعصب كل واحدة منها لمذهب في صراع مع المذاهب الأخرى ، هذا التمزق الاجتماعي أصله اختلاف أفكار وأراء بسيطة ، أدت الى نزاع ثقافي كان بسبب أزمة شلت حركية المجتمع وألقته في قيود لا زال لم يتحرر منها .

وتناول هذا الموضوع أرنست رينان : «والذي يمكن أن يظهر محيرا أول وهلة هو أن هذه الاضطهادات كانت مستحبة من العامة كثيرا وأن أكثر الأمراء ثقافة كانوا يدعونها تنزع منهم على الرغم من ميولاتهم الشخصية نيلا للحضوة لدى العامة وكان مقت العامة للفلسفة الطبيعية من أبرز ما تتصف به اسبانيا الإسلامية»[22] .

ان الكافة كما يسميها ابن خلدون لا يخشى بأسها اذا لم تحركها أيادي مغرضة تعرف كيف

تضرب على الوتيرة الحساسة ، وتيرة الدين فيهيج الخطابيون تحت تأثيرها مضرمين النار في انتاج العقل البشري ولا تخمد ثائرتهم حتى تفرغ الساحة من كل من يدعي الفلسفة . من يستطيع الوفاق بين أفكار متضاربة يعتز أصحابها بالانتصار ويفتخرون بها معتقدين أن الحقيقة تنعكس من خلال آراءهم ؟ ان الاستعداد بالنفس يدفع أحيانا الى الاستبداد بالرأي وعدم الاكتراث بالغير وبه تكون القطيعة الكاملة بين الأفراد والجمعات . تعرض المستشرق آدم ميتز لهذا الجانب فقال : «ان المعتزلة كانوا متكاتفين حتى أن تكافتهم في القرن الرابع كان مضرب المثل وحتى تمثل الخوارزمي باعتداد المقتزلي بالمعتزلي وكان المتكلمون ينظرون في كل شيء وأرادوا معرفة كل شيء . وكان من يسمون بالفلاسفة ينظرون إليهم بعين التصغير كما ينظر الباحث في علم النفس التجريبي الى صاحب ما بعد الطبيعة وكان الفلاسفة يرمون المتكلمين بالتعصب واستحسان التقليل وانهم انفتح باب الحيرة عليهم وسد باب اليقين عنهم ، ولهذا قل تألههم وتنزههم وصاروا يقولون بتكافؤ الأدلة[23] .

ان الهوة بين الفرقين تبدو شاسعة ولم يحاول أي منهما أن يقترب من الآخر رغبة في التعاون والوئام وازالة الأحكام المسبقة . وتاريخ الفرق الإسلامية مفعم بالأحداث الأليمة التي لازالت الأذان تسمع صداها . لقد أقام هذا التاريخ العنيف حواجز فصلت الفئات المثقفة عن بعضها وتركت الصراع متواصلا بينها فانطفى مشعل الحضارة بوأد الفلسفة والاشتغال بقضايا هامشية كتكفير بعض الأعلام والشك في ايمان بعض المفكرين . فتعطل الابداع وتوقف الانتاج العلمي والثقافي واستحال التكامل وعمت الحيرة المجتمع فلم يجد مرشدا يأخذ بيده فانساق في طريق التخلف .

كان المرحوم محمود قاسم يعتقد أن الاهتمام بالثقافات الأخرى هو الذي كان سبب اختلاف المسلمين وانحرافهم فقال : «وفي رأينا أنه كان أولى بالمسلمين جميعا متكلمين وغير متكلمين أن يتدبروا آيات الكتاب لكي يستنبطوا منها أدلتهم بدلا من أن يعمدوا الى نظريات فلسفية ظنية وخصوصا اذا كانت نظريات من الدرجة الثانية والثالثة كنظرية الجوهر الفرد»[24] .

لقد سلم بهذا الرأي بأن الفلسفة اليونانية لم يستصغها الفكر الإسلامي ولم تدمج في الثقافة الاسلامية فخلقت مشاكل فلسفية تتعارض مع الروح القرآني لا ندري ماذا كان يقصد هذا الأستاذ عندما عاب على المسلم الاشتغال بالفلسفة الاغريقية ؟ هل كان يعتبر العقل اليوناني يتميز بميزات لا تبرز في غيره وأن الاشتغال بانتاجه مفسدة للفكر الإسلامي ؟ مهما كانت نيته ، فان البحث في الثقافات الأجنبية ضروري لأنه يساعدنا على انماء أفكارنا وتصحيح أخطائنا واقتصار الوقت في القضايا التي وجدت حلولها . ورأي أبن رشد كما ذكرنا آنفا يدعو الى الاطلاع على ما تركه الأوائل من مسلمين وغيرهم ، ولا يغني عنا شيئا اخفاء عيبنا ، فمشاكلنا لم تأت كلها من احتكاكنا بالغرب .

ان أزمتنا الحالية سليلة الأزمة الثقافية التي عاشها أباؤنا مع الفرق أنهم واجهوا تحدي الثقافة اليونانية والفارسية وغيرهما بشجاعة وثقة بالنفس واعتزاز بالعقيدة الإسلامية دافعوا عن الإسلام بأفكار بناءة وأثبتوا كفاءتهم في البحث والمناظرة وشيدوا نظريات فلسفية وعلمية أقحموا بها الخصوم المعاندين وأنشؤا حضارة أصبحت نموذجا في العالم . وبعبارة وجيزة لقد كانوا عمالقة الفكر ، أبدعوا في كل المجالات العلمية والثقافية المعروفة في زمنهم . أخذوا من الغير وأضافوا الكثير الى اقتباسهم وصبغوه بصبغتهم فكان انتاجا إسلاميا خالصا . لكن الخلف تنكر للسلف ، فلم يحافظ على التركة الثقافية الطائلة التي ورثها ، لقد أودعها الخزانات وأعرض عنها ونسيها فلم يدرسها ولم يستبدلها بأحسن منها .

يعيش حياة تقليد مملة وعصرية ملفقة ويتقلب بين الطرفين لا يدري أين الاتجاه السليم . عقله عقيم وفكره سخيف ، عالة على الغير في غذائه ، ولباسه وعلاجه وثقافته ، مستسلما لنفوذ الأجنبي عاجز عن ابداء رأيه واعطاء كلمته وابراز شخصيته .

تتنازعه تيارات أربعة دون أن يجره واحد منها نحو مشروع اجتماعي موحد ، يلخصها الأستاذ عبد الله العروي[25] كما يلي :

1 – يتزعم أولها المصلح الديني الذي يريد تغيير المجتمع انطلاقا من الدين الذي يعتبره العنصر الأساسي في حياة المسلمين الاجتماعية . فاذا نغضنا عليه البدع التي كسته وعدنا به الى نقاوة عقيدة السلف الصالح نسترجع مجدنا ونلحق بالركب الحصاري .

2 – ويعترض هذه الفكرة رجل السياسة فيقترح أفكار علمانية تترك الدين وشأنه وتهتم بقضايا سياسية كالديمقراطية والحرية والمساواة والدستور والبرلمان والمواطنة وحقوق الانسان يريد تجسيد هذه المفاهيم في الواقع معتقدا أنها شرط كل تقدم في المجتمع وبدونها كل محاولة تفشل لا محالة .

3 – أما التقنوقراطي فيسخر من كل هذه الآراء «الوهمية» التي لا صلة لها بالواقع المحسوس فيجزم أن معالجة الوضعية الإجتماعية تكمن في السيطرة على المادة فمادمنا نجهل التقنيات البسيطة لا يمكن أن نطمح الى تغير إجتماعي جذري .

ونضيف نحن تيارا رابعا يتمثل في رجل التقليد الذي يسعى بأن تبقى الظواهر بكاملها جامدة ، موهما أتباعه بأن الخير في الاستقرار ومتمثلا بالمثل الشعبي «من دامت عادته دامت سعادته» .

هذه التيارات تارة تتصارع وأخرى تتسالم دون أن يهيمن أحدها على الآخر ويفرض سلطته وانتاجه الفكري .

والحقيقة أن الإصلاح يبدأ بإصلاح النفوس وتطهيرها من الرواسب الوخيمة التي طغت عليها فاذا حصل هذا فان المجتمع يخرج من التخلف الذي شوه وجهه ، ولقد جربت الأمة الإسلامية

هذه التيارات جميعها فلم يلب واحد منها مطالبها فاتجهت الأنظار بعد ليل طويل نحو المولود المبارك الأخير ، ألا وهو الصحوة الإسلامية التي كانت تحمل أمال الوحدة وجمع الشمل والقضاء على الاختلاف المفتعل الذي أشعل جذوة العداوة والبغضاء بين المسلمين ، لكننا نلاحظ وبكل حصرة أن الشباب المتعطش لاقرار وحدة الصف تاه في قضايا هامشية سخيفة صرف فيها وقته ونسي الهدف المنشود الذي هو العمل الجماعي من أجل اعادة محاسن الإسلام للمجتمع الإسلامي . واذا سلمنا بأن أزمة الأمس هي أزمة اليوم فشتان بين الأجداد والأحفاد .

الهوامش

(1) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، دار الأندلس – بيروت بدون تاريخ ص ص ، 78 ، 79

(2) محمود قاسم ابن رشد وفلسفته الدينية ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، 1964 ، ص 71

(3) ابن رشد : فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، مطبعة كاربونال – الجزائر 1948 ، ط 3 ص 8 .

(4) النحل ، الآية 125

(5) يحيا هويدي : تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية – مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1966 ص 267

(6) ابن رشد : فصل المقال المصدر السابق ، المقدمة ، ص 11

(7) ابن رشد المصد رالسابق ، ص 26

(8) العنكبوت ، الآية 69

(9) آل عمران ، الآية 7 .

(10) ابن رشد ، المصدر السابق

(11) ابن رشد المرجع السابق ، ص 5 .

(12) ابن رشد المرجع السابق ص 4

(13) علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، 1966 ط 4 ، ج 1 ، ص 26 .

(14) أرنست رينان : ابن رشد والرشدية ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، 1957 ، ص ص ، 10 ، 11

(15) الأنعام الآية 75 ، 78

(16) علي سامي النشار : المرجع السابق ، ص 165

(17) الغزالي : المرجع السابق ، ص 106

(18) المقرى نفح الطيب ، دار صادر ، بيروت 1968 ، ج 1 ، ص 221 .

(19) ابن رشد المرجع السابق ، ص 21 .

(20) ابن رشد المرجع السابق ، ص 27 .

(21) ابن رشد المرجع السابق ، ص 27

(22) أرنست رينان . المصدر السابق ، ص ص 51 ، 52

(23) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن 4هـ ترجمة محمد عبد الهادي أبوا ريدة دار الكتاب العربي بيروت ، 1967 ، ج 1 ص 315

(24) ابن رشد : مناهج الأدلة في عقائد الملة (المقدمة) مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة 1968 ط 3 ص 4 .

(25) عبد الله العروي : L'idéologie ararbe contemporaine-Maspero, PARIS, 1967 .